الفصل 18
قصة نبراسكا

«الأرض أمٌّ لا تفنى أبداً»

ـ حكمة الماوري

سكان نيوزيلندا الأصليين

كنت طوال أربعة أعوام على التوالي قد اعتدت زيارة منطقة نهر پلات في ولاية نبراسكا، لرؤية المشهد المثير للرهبة عن هجرة طيور الكركي عند الكثبان الرملية، والإوز الأبيض كالثلج وغيرها من طيور الماء. وفي ذروة موسم الهجرة قد يكون هناك ما يقارب (12) مليون طائر، حيث تصل طيور الكركي خلال شهر آذار وتبقى لعدة أسابيع لتقتات على الذرة المتبقية من حصاد سهول پلات. ولا بد لها من الحصول على ما يكفي من الدهون للجسم من أجل تحمل هجرتها الطويلة إلى الشمال، وبعضها يصل حتى سيبيريا. وكانت تغذي هذه الهجرة السنوية، وعلى مدى عشرات الآلاف من السنين، الحبوب التي توفرها الأميال الممتدة من المروج المنبسطة على طرفي النهر، وتجمعات المروج الخضراء الرطبة القائمة عند حدود النهر والذي كان يؤمن مادة البروتين في صورة ضفادع، وديدان، وإلى آخره. وفي كل ليلة، خلال فترة إقامتها كانت طيور الكركي والإوز تبيت على طول الضفاف الرملية لنهر پلات المتلألئ، والذي يجري فوق طبقة أوغاللالا الصخرية المائية، أطول طبقة صخرية مائية في العالم.

لقد وقعت في حب المروج وروعة الهجرة الخالصة، وأصبحت مفتونة بتاريخ المنطقة، وبالمأساة، وبالبطولة ـ وبالأمل المكتشف حديثاً ـ للتفاعل البشري مع الطبيعة فيما كان يوماً ما يشار إليه على أنه الصحراء الأميركية الكبرى. إنها قصة عمل شاق، وإلحاح عنيد. وابتكار تقني وجهد بطولي لإنتاج غذاء من أرض تبدو قاحلة ظاهرياً. وهي أيضاً قصة تسلط الشركات العملاقة التي تقوم

بالتحريض ضد مزارع الأُسر، مع شرح لما حدث، وما يزال يحدث في مناطق كثيرة جداً من العالم. وأنني أسوق هذه القصة مع اقترابنا من نهاية الكتاب، لأنها تضم معاً العديد من الأفكار الرئيسة التي ناقشناها في الفصول السابقة، ولأنها تجسد، كذلك، الروح الإنسانية التي لا تقهر، والمرونة التي تتمتع بها الطبيعة.

في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، وقبل مجيء الرجل الأبيض، قامت قبائل الپوني بحراثة الأرض قرب النهر. وزرعت عشرة أنواع مختلفة من الذرة، سبعة أنواع من نبات اليقطين والكوسا، وثمانية أنواع من الفاصولياء. لم يقوموا بسقايتها، ونادراً ما تدخلوا في عمل البيئة الطبيعية. ولم تتغير الأمور بشكل جوهري حتى عقد الأعوام 1860 مع إقرار قانون «هومستيد» الذي مكن عائلات العرق الأبيض الرواد من الاستيلاء على مساحات كثيرة من الأرض مجاناً في حال وافقوا على زراعتها. ورغم التحديات التي طرحها مثل هذا المشروع، فقد انتقل الكثيرون إلى نبراسكا لاستغلال هذا العرض.

لقد كان ذلك سيعود بعواقب وخيمة على الحياة الطبيعية للنباتات وعلى آخر من تبقى من هنود قبائل الپوني الذين انخفض عددهم مرة بسبب الأمراض التي يحملها القادمون الجدد، والذين كانوا يتعرضون للهجوم من قبل قبائل الداكوتا، وعلى نحو متزايد. وبحلول عام 1875 أرغم آخر من تبقى من قبائل الپوني، والذين كانوا يقابلون بازدراء من جانب المستوطنين، ومع التخلص من معظم قطعان البوفالو الضخمة التي كانوا قد اتكلوا عليها لمئات السنين، أرغموا على الانتقال إلى "المقاطعة الهندية" في ولاية أوكلاهوما.

وفي تلك الأثناء بدأ أوائل المستوطنين ورغم العناء الكبير، بترويض المروج ببطء وتم في البداية حفر أقنية لتصريف المياه السطحية عبر خنادق من أجل ري الحقول. وكان ذلك يستخدم في معظمه لري الحدائق، والأشجار، والمساحات الخضراء وبعض المروج المزروعة بالقش، إلا أنها استخدمت أيضاً من أجل زراعة محاصيل الحبوب. ثم وخلال بداية أعوام 1890 تسببت ظروف جفاف قاسية في إلحاق خسارة كبيرة بالمحاصيل ـ طبعاً لأنه عندما لم تكن المياه تسيل بشكل حر

في الأنهار أو الجداول، لن يتمكن المزارعون من القيام بأعمال الري حينما كانوا بأشد الحاجة إلى ذلك. وقد حدث هذا عندما بدأ المزارعون بالبحث عن وسائل للإفادة من مياه طبقة أوغاللالا الصخرية المائية، النقية والنظيفة، وتم حفر أولى الآبار الارتوازية.

لم يتم استغلال المياه الجوفية بشكل فعلي إلا في أعوام الأربعينيات والخمسينيات مع قدوم أول عنفة تدار بقوة الماء لأن المضخات الجديدة والقوية تمكنت آنذاك من رفع المياه من أعماق الأرض. وجرى بالتدريج إرواء الملايين من الأراضي فيما كان يجري حفر الآبار بإطراد، لاسيما خلال مواسم الجفاف التي شهدتها الأعوام 1953 ـ 1957 (كان هنالك أقل من ألف بئر في عام 1953 و4,500 في عام 1956 وبحلول عام 2000 كانت هناك 81,112 مضخة).

إلا أن التكنولوجيا التي كان لها الأثر الأعظم على المروج تمثلت في المحور المركزي المتشعب، المسؤول عن الحقول الضخمة الدائرية الشكل التي غالباً ما تشاهد بكثرة من الطائرات والتي بالإمكان مشاهدتها حتى من الفضاء. لقد قيل أن مجيء المحور المركزي كان أكثر الاختراعات الميكانيكية أهمية في الزراعة منذ استبدال حيوانات الجر بالجرارات. ويتضمن الجهاز أنبوباً من مرِّشات رذاذ المياه التي تدور حول نقطة محور مركزي، بإمكانه أن يزحف فوق التلال وعبر السهول مكتسحاً قطاعات واسعة من الأراضي، وناثراً الماء حيث تكون الطبيعة أكثر تحفظاً من نواح أخرى. ولأن المحاور كثيراً ما تصل إلى عمق أعماق الأرض ولها محركات تدفع المياه من الطبقة الصخرية المائية في الأسفل، فإن التأثير التراكمي يستنزف النطاق المائي عند معدلات عالية مخيفة وغير مرصودة. وفيما جرت إقامة المزيد والمزيد من المحاور المركزية، فقد أصبح ممكناً زراعة الملايين من الأمتار المربعة من الأرض غير الصالحة للزراعة سابقاً. وفي عام 1960 تمت حراثة 800,000 هكتار، وبحلول عام 2000 كانت المساحة قد ارتفعت إلى 3,360 مليون هكتار.

لديهم الذُرة

يعد النظام الزراعي في وسط ولاية نبراسكا اليوم واحداً من أكثر النظم إنتاجاً في العالم، غير أنه ينتج المحصول ذاته تقريباً ـ الذرة. ونبراسكا هي ثالث أكبر منتج للذرة بعد ولايتي الينوي وايداهو، حيث يُزرع الكثير منها من أجل علف المواشي. أما المحصول الثاني الذي تتكرر زراعته فهو فول الصويا. وبإمكان التربة الخصبة لوادي پلات أن تنمي أيضاً محاصيل أخرى مثل الشوندر السكري، الفاصولياء الجافة القابلة للأكل، وذرة السرغوم، والقمح، والفصة. ولكن ولأن الذرة أكثر تجاوباً مع استخدامات الماء والسماد فقد أنتجت بعض الحقول الذرة فقط على مدى السنوات الثلاثين الماضية.

هناك مشاكلات مرتبطة بزراعة هذا المحصول الواحد على مدى فترات طويلة. والسبب الأول في ذلك هو أن قلة تدوير المحصول تعني احتمال خسارة التربة نتيجة لعامل التعرية التي تحدثها الرياح. أما السبب الآخر فهو أنه يشجع تكاثر أعداد كبيرة من ديدان جذور الذرة ومن حشرة سوس الخشب، وعث العناكب الحمراء وغيرها، وهذه تبني تدريجياً مقاومة للحشرات الضارة، وتتطلب دوماً استخدام المزيد من المواد الكيميائية في محاولة القضاء عليها. وتسيل هذه الكيماويات داخل المياه السطحية وتتسرب إلى المياه الجوفية حاملة المزيد من السموم. كذلك، فإنه بدون وجود محاصيل بديلة، فإن المزارعين يعانون من خسائر فادحة عندما تنخفض أسعار الذرة. وبالإمكان التلاعب بها عن طريق إغراق السوق من قبل الشركات الكبرى التي تسعى إلى شراء كميات أكبر والتحكم في المزيد من الأرض دائماً، فيما يتخلى المزارعون الصغار عن الكفاح من أجل البقاء.

لديهم مزارع الإنتاج الحيواني

إن مبنى يضم 40,000 خنزيرٍ ينتج عنه نفس الكمية من الصرف الصحي التي تنتج عن 160,000 شخص ـ نصف سكان ولاية أوماها تقريباً. غير أن توزع البراز

يحدث أكثر من مجرد تلوث في الروائح، إنه يدخل البكتيريا والسموم إلى الهواء والمياه الجوفية ـ لأن مصادر المياه مترابطة بشكل ثابت ـ وكذلك إلى الأنهار والجداول حيث قد تكون هناك عواقب وخيمة على البيئة المحلية. ولكن وفي الكثير من الأحيان، وبحلول الوقت الذي يتم فيه اكتشاف آثار النفايات الصادرة عن هذه المباني، يكون قد فات الأوان بالنسبة للنباتات المحلية، والحيوانات، وأحياناً البشر.

التقيت رجلاً في نبراسكا هذا الربيع، كان قد عاش وعمل بالزراعة في بلدة صغيرة، منذ عام 1937 وقد تذكر جيداً مزارع تربية الخنازير في نبراسكا والتي قامت بدور مهم ضمن مجتمعاتها. لم يكن القانون الخاص برمي فضلات الخنازير وارداً آنذاك، لأنه ما من مزارع كان يمتلك عدداً من الخنازير أكثر مما يمكن لمزرعته أن تتسع، وما من أحد كان سيفكر في فحص المياه الجوفية لتحري المواد الملوثة فيها لأنه ما من أحد كان يصاب بالمرض ـ فالبالغون لم يعانوا مشاكلات في التنفس، والأطفال لم يكونوا يصابون بمرض «تناذرالطفل المزرق» ـ والأسماك لم تكن تطفو على السطح وقد نفقت في جداولها.

إلا أن الأمور بدت تتغير في الثمانينيات، كما قال، مع ظهور الأعمال التجارية الكبيرة على الساحة. فقد تم إنشاء أول مزارع للإنتاج الحيواني أو المعامل الخاصة بتصنيع علف الحيوانات الحبيسة، ومنها الخنازير. وحينما بدأت هذه بتربية أعداد كبيرة من الخنازير التي كانت تكبر على نحو سريع بسبب الهورمونات والمضادات الحيوية التي تعطى ضمن الغذاء، هبط سعر الخنزير بشكل سريع من 36 دولاراً إلى 8 دولارات تقريباً. ووجد مربو الخنازير المحليين صعوبة في الاقتصاد في النفقات، وأعلن الكثيرون إفلاسهم.

وبعيداً كلياً عن القسوة المروعة التي تمارس في مزارع الإنتاج الحيواني هذه، فإنها تعاني مشكلة التخلص من فضلات الخنازير، التي يلقى بها في «بحيرات» ضحلة مكشوفة. ويتم أحياناً تخفيفها بالماء وترش على المحاصيل المجاورة (غالباً

المعدلة وراثياً) ـ سماد محاط ببقايا مضادات حيوية وعلى الأغلب ببكتيريا مقاومة للمضادات الحيوية. إن الرائحة النتنة لهذه الفضلات تثير الإشمئزاز. ويقيم صديقي طوم مانغلسون بشكل دائم في بلدة جاكسون هول بولاية وايومينغ، إلا أنه مازال يحتفظ بكوخ له في نبراسكا، الولاية التي نشأ فيها. وفي إحدى زياراتي إلى كوخ طوم كان الحقل المجاور قد عولج للتو بفضلات الخنزير المخففة بالمياه. وقد جعلت الرائحة كلانا يشعر بالغثيان فعلاً. فليس غريباً أن قيمة الأملاك العقارية تهبط عندما تقام صناعات لمنتجات الخنزير ضمن مسافة انتشار الروائح. لم يكن لبراز الخنزير في مزارع طفولتي مثل تلك الرائحة على الإطلاق. وليس غريباً أن تستهدف صناعة لحم الخنزير الأميركية البلدات الريفية الفقيرة حيث المكان الأرخص لاكتساب تأييد سياسي، والأسهل لإسكات المنتقدين.

وقالت لورا كريسباخ، إحدى الخبراء المعروفين على مستوى البلاد والمختصة بقوانين الولاية والتشريعات الفيدرالية المتعلقة بصناعة علف الحيوانات قيد الاحتجاز «لن يمكنك أبداً أن ترمي هذا الشيء في مدينة نيويورك ،غير أنه من الصعب أن تسمع احتجاجاً عنيفاً في مقاطعة تشيري في ولاية نبراسكا حيث تبلغ نسبة عدد السكان شخصاً واحداً لكل ميل مربع».

لديهم السوبر ماركت العالمي

يواجه المزارعون هنا مشاكلات عديدة. ففي كتابه ذي الرؤية الثاقبة والذي يحمل عنوان «تناول طعامك هنا» يوضح برايان هالويل كيف أن جميع الفاكهة والخضار المستهلكة في مدن ولاية نبراسكا كانت عملياً وحتى فترة الخمسينيات تزرع محلياً. ثم أصبح نقل الغذاء لمسافات بعيدة ممكناً مع استخدام الشاحنات الطويلة المبردة، ووقود البنزين الرخيص، والتقدم في عمليات تصنيع الطعام والتي جعلت من التخزين الطويل الأمد أمراً ممكناً، وبوجود نظام طرق سريعة متداخلة بين الولايات المتحدة تموله الحكومة الفيدرالية. وقد بشر هذا بوصول محلات سوبر ماركت ضخمة تفتتح في المزيد من المدن والبلدات وتبيع طعاماً من كل

أنحاء البلاد ومن الخارج. وهكذا وفيما أخفقت الأراضي الزراعية المحلية في تحقيق الربح هلك الآلاف من مزارع الأُسر في نبراسكا (والولايات المحيطة) وحلت قطع الأرض المقسمة إلى مساحات صغيرة والمباني الإسمنتية، محل المجتمعات الزراعية وبصورة متزايدة. ويعتمد المتبقي من المزارعين في المقام الأول على المحاصيل الجيدة من الذرة وفول الصويا من أجل الاستمرار في العيش.

رجل نبراسكا ذو الرؤية الثاقبة

بدأ جورج دبليو. نوريس (1861- 1944) حياة الزراعة في ولاية أوهايو، بمزرعة أسرته. وكان دائماً صديقاً للمزارع ولرجل الشارع العادي. انتقل إلى نبراسكا في سن الرابعة والعشرين بهدف دراسة الحقوق، ووقع في حب الأرض، وانتخب في النهاية عضواً في الكونغرس حيث أصبح نائباً ذا نفوذ كبير جداً، وأبرز شخصية سياسية في تاريخ نبراسكا.

كان التصور الخيالي لدى نوريس أن يجمع في برنامج ضخم واحد بين التحكم في مياه الفيضانات، والري، وإعادة تخزين المياه الجوفية، وصيانة تدفق مياه الجداول، واستصلاح الأراضي، وإعادة تسخير الغابات وتوليد الطاقة الكهربائية. وكانت جهوده لتحقيق هذا المشروع قد أحبطت على مدى اثني عشر عاماً بسبب خلاف جوهري، وأعني بذلك ما إذا كان يتوجب تنفيذه من جانب شركات خاصة أم من جانب الحكومة الفيدرالية. وقد تبين أن الكونغرس اعتبر منذ البداية أن التنفيذ على يد القطاع الخاص كان الخيار الوحيد، لكن نوريس نظم حملة دون هوادة من أجل أن تتولى الحكومة إدارة موارد المياه. وكان يرى في المياه ثروة طبيعية منحها الله تعالى بقصد استخدامها من قبل الناس وليست سلعة تستغل بقصد الربح. وقد كتب في سيرته الذاتية: «منذ البداية حتى النهاية، كان هناك ذلك النزاع الذي لا يمكن تسويته بين أولئك الذين اعتقدوا أن الثروة الطبيعية للولايات المتحدة يمكن تطويرها على النحو الأفضل عن طريق رأس المال والمشاريع الخاصة، وبين أولئك الذين اعتقدوا أنه فيما يتعلق بنشاطات معينة

مرتبطة بالموارد الطبيعية فإن القوة العظمى للحكومة الفيدرالية ذاتها تستطيع فقط تنفيذ هذه المهمة ذات الضرورة القصوى، بروح من عدم الأنانية من أجل الخير الأعظم لصالح المجموع الأعظم. «كم كان سيشعر بالصدمة لو أنه علم أن «القوة العظمى للحكومة الفيدرالية» تُستخدم الآن لتعزيز قدرة رأس المال والمشاريع الخاصة من أجل إلحاق الأذى بصغار مزارعي الأُسر والذين عمل من أجلهم دون كلل. وكما كان سيصاب بصدمة أكبر إزاء قوة الشركات المتعددة الجنسيات الحالية، ومحاولاتها للاستيلاء على موارد المياه العالمية.

ولديهم أزمة المياه

ناقشنا في الفصل السابق الأزمة العالمية الوشيكة للمياه ـ لا يوجد أي مكان في العالم يقدم مثالاً على ذلك أفضل من نبراسكا والولايات المجاورة. ففي الوقت الراهن ربيع (2005) تعيش ولايات كولورادو، ونبراسكا، ووايومينغ خامس عام من دورة الجفاف. وهناك قلق متنامٍ بشأن انخفاض المعدلات سواء في المياه السطحية أم في الطبقة الصخرية المائية في الأسفل. وتستخدم المياه ليس فقط للزراعة ولكن وبشكل متزايد للاستعمال المنزلي في مدن تنمو بسرعة.

وقد صدرت في بعض المناطق من نبراسكا حالياً قرارات رسمية بتأجيل دفع الديون المستحقة على حفر آبار جديدة. وأدت خطط فرض تشريعات مماثلة في مناطق أخرى إلى نوبة هيستيرية من حفر الآبار ـ الحقيقة أن وتيرة حفر الآبار شكلت أكثر من امتحان من أجل فرض قيود على عمليات الحفر. ويصل عدد الآبار الجديدة في السنوات الثلاث الماضية إلى أكثر من (44%) من المجموع العام الذي تم حفره خلال السنوات العشر الأخيرة، وقد فاق عدد الآبار الجديدة التي تم حفرها في عرض الولاية وللسنة الثالثة على التوالي في عام 2004 الألف بئر. وإلى الآن لا توجد قيود على كمية المياه المسموح بضخها، ولكن من المرجح أن يتغير هذا الوضع، كما حصل في ولايات أخرى. فالمشكلة الرئيسة هي أن كلاً من

محصول الذرة وفول الصويا يتطلبان كمية كبيرة من المياه ـ في عام 2003وحده، غمر المزارعون 325 مليون هكتار من الأراضي وعلى عمق قدم واحد. وجرى سحب بعض الكميات من المياه السطحية غير أن معظمها جرى ضخه من مصادر تحت الأرض.

كنت قد علمت لأول مرة بموضوع الخطر الذي يتهدد نهر بلات في عام 2003 وكان ذلك التفكير مخيفاً إلى حد أنني سألت طوم إن كان بإمكانه أن يهيئ لي أن أجتمع مع بعض المزارعين المحليين ومجموعات المحافظة على البيئة. وفي العام التالي وبفضل مساعٍ بذلها صديق طوم، بول جونزغارد، حضرنا اجتماعاً كهذا واستمعنا إلى المشاكلات التي واجهت المجموعتين. كان المزارعون مترددين في الكلام بدايةً، ولكن ما أن خف توترهم، بات واضحاً أنهم كانوا يواجهون أوقاتاً عصيبة. لقد شعروا أنهم مهددون من قبل الشركات الكبرى التي بمقدورها التحكم في أسعار الذرة. فكل مزارع كان يعمل في منطقة عادة ما كانت تقسم إلى أربع أو خمس مزارع، وذلك حتى يقتصد في الإنفاق فلا يتجاوز حدود دخله. كانوا يقومون بحراثة أرضهم مباشرة حتى بداية الطريق فيدمروا الأجزاء المتبقية من الملاذات الطبيعية للحياة البرية، لأن كل قدم إضافي كانت له حساباته. وقد امتعضوا من مجيء الزوار الذين كانوا يأتون مرة كل عام لمشاهدة هجرة طائر الكركي والذين وطأوا أرضهم بدون حتى كلمة وداع أو شكر. كما استاؤوا من مجموعات حماية البيئة التي كانت تشتري الأراضي لأنها كانت تدفع مبالغ خيالية مما أدى إلى ارتفاع قيمة جميع الأراضي في المنطقة فكان على المزارعين عندها أن يدفعوا ضرائب متزايدة.

لقد أطلعتهم على المشاكلات التي يواجهها المزارعون حول منطقة غومبي، وبعض الوسائل التي حاولنا مساعدتهم من خلالها، بحيث إنهم سوف يساعدوننا بدورهم على الاعتناء بقردة الشمبانزي. وقد تساءلت كيف يمكن لنا أن نقدم العون لهؤلاء المزارعين في وادي بلات. وناقشنا الحلول المختلفة التي تم اقتراحها.

هناك أولاً، تسهيلات ممنوحة للحفاظ على البيئة. فإذا ماانضم مزارع إلى هذا البرنامج فإنه يوافق على عدم تطوير بعض أجزاء من أرضه، وعدم السماح بإدخال تحسينات عليها إلى الأبد، مما يخوله الحصول على مجموعة متنوعة من الضرائب المخفضة. وهناك خطة أخرى تقضي بدفع الأموال إلى المزارعين الذين يعيشون على طول مجرى نهري ريبابليكان وبلات، على امتداد الطريق من حدود ولاية وايومينغ، كي لا يقوموا بأعمال الري. والغرض من هذا هو الحفاظ على المياه واسترجاع حوالي (160,000) هكتار من أراضي المحاصيل لتصبح أراضٍ عشبية. وقد بدأ البرنامج في عام 2002 وتمت حتى الآن حماية (7,9272) هكتار من الأراضي. وذكر جميع المزارعين أنهم سوف ينتهزون فرصة وجود هذا العرض بالتأكيد. لكنهم كانوا يشكّون في وصول النقود في وقت قريب لاحقاً. وقد كانت هناك بعض الخطط الصغيرة حيث تقوم جماعات المحافظة على البيئة بدفع أموال للمزارعين مقابل عدم قيامهم بحصد غلالهم، تاركين بذلك المزيد من الحبوب من أجل الطيور.

وبدأ أحد المزارعين الكبار السن في الحديث عن الأيام الخوالي فتذكر الاستيقاظ ليلاً وهو طفل على وقع هدير ودوي صوت فيضان نهر بلات (في موسم الفيضانات). فقد جعل ذوبان الثلج في الربيع في كولورادو المياه تتدفق جارية من الجبال جارفة الرمل والطمي ومحدثة قنوات جديدة. وهو يظن أن هناك «العديد جداً من السدود والخزانات حالياً». وتذكر شرب المياه من بئر الأُسرة عندما كان طفلاً. أقداح مليئة بماء بارد نظيف. وقال: «لن أدع أحفادي يشربون مجرد ملعقة واحدة من المياه الآن. إنها تلك المواد الكيميائية التي استخدمناها في الحقول من أجل الذرة التي قضت عليها».

ثم انقطع عن الكلام والتزم الصمت، وهو يفكر حسبما أعتقد في عالم مضى منذ زمن بعيد. عالم كان نظيفاً، عالم كان قاسياً بالنسبة للمزارع، ولكنه كان عالم يعمل فيه على أمل أن يرث أولاده أرضه وحبه للأرض. وقد أبلغنا المزارعون

أن أولادهم نادراً ما يبقون الآن. فقد ذهبوا للبحث عن حظوظهم في البلدات بعيداً عن العمل الشاق الذي يقصم الظهر، وعن الكفاح من أجل تحقيق التوافق بين الإنفاق والدخل، وعن النهر المنكمش الذي يجري فوق الطبقة الصخرية المائية الغارقة في سمومها.

وتحدثنا عن طائر الكركي والطيور الأخرى، حيث رأى المزارعون أن الكركي سيعاني محنة مؤسفة. فطيور الكركي تعتمد على الحبوب المتبقية على الأرض بعد الحصاد لتزويدها بالدهون اللازمة لإجسامها كي تهاجر لاحقاً إلى آلاسكا وسيبيريا. فهذه الإتكالية كان سببها تدمير المروج والبروتين الحيواني الموجود في السهوب الرطبة. وربما تكون هناك طريقة ما تستطيع بها طيور الكركي والزوار الذين تجتذبهم، مساعدة المزارعين الذين يكافحون من أجل البقاء. وعمد بعض المزارعين إلى بناء مكامن صغيرة في حال كانت أراضيهم محاذية للنهر، وهي أماكن يستطيع من خلالها العدد المتزايد للسياح مشاهدة طيور الكركي لدى وصولها في ساعات المساء.

ومع ذلك يكبر الأمل في نبراسكا

إن ما لم نناقشه في اللقاء مع المزارعين كان بصيص الأمل الذي عبرت عنه حركة الوجبات البطيئة والمعروفة من قبل البعض بثورة الغذاء. وقبل أن أبدأ العمل على هذا الكتاب لم أكن بالفعل قد فكرت فيه مطلقاً. ولكن حركة الوجبات البطيئة كانت قد ثبتت أقدامها في نبراسكا.

عندما قمت بزيارة إلى مدينة لينكولن في عام 2004 لإلقاء محاضرة في الجامعة هناك، لم أكن قد سمعت بجون الليس والمتجر الذي افتتحه مع مزارعين محليين آخرين تحت اسم سوق مزارعي سنترفيل. إنه يعج بالكامل تقريباً بالطعام الذي يمثل إنتاج خمسين مزارعاً يقيمون على مسافة خمسين ميلاً من مدينة لينكولن. وكانت فكرة ثورية وجديدة تماماً حينما قام أولاً ببيع مزرعته

ومعداته للبدء في تنفيذها. وقد قرأت عن جون الليس في كتاب برايان هالويل «تناول طعامك هنا». فالمشروع يجسد بصورة مصغرة، مرونة الروح البشرية ـ وهي في هذه الحالة مرتبطة بمرونة الطبيعة.

استهل جون عمله في المتجر بالرغم من أنه كان مدركاً تماماً لوجود مركز ضخم من فرع محلات وول مارت على الطرف الآخر من البلدة، يضم ثمانية وعشرين صنفاً من أصناف الطعام. ولقد اعتقد بأن الزبائن ربما سيقومون بالشراء من سوق مزارعي سنترفيل لأنهم يرغبون في الحصول على الغذاء المزروع محلياً. وكان يعلم أن كل الطعام الموجود في وول مارت تقريباً، كان قد تنقل آلاف الأميال للوصول إلى هناك، وحتى المزارع الذي يزرع الخس خارج مدينة لينكولن، والذي يرغب في بيع إنتاجه إلى وول مارت، كان يتوجب عليه أن يبعث بمنتجه مسافة 225ميلاً إلى الشمال من منطقة بلات لإخضاعه للفحص. (كل خسة يجب أن تلبي شروط الأنظمة الصارمة المتعلقة بضبط النوعية والمظهر) وبعد ذلك يتم إرسالها ثانية مسافة 225 ميلاً في طريق العودة لبيعها في مخازن وول مارت في مدينة لينكولن.

إعادة الثور بيزون إلى السهوب

وحتى حينما تنال شركات الأعمال التجارية الزراعية المزيد والمزيد من الأراضي التي يمكن اكتساب المزيد والمزيد من الأرباح منها في المدى القصير، فإن هناك بعضاً منها تحصل على الأرض وفي ذهنها المزيد من النماذج التجارية المستدامة.

أحد هؤلاء الرواد هو القطب الإعلامي الشهير المختص بدراسة التاريخ الطبيعي، تيد تيرنر. وعندما التقيت به في نيويورك مؤخراً تبادلنا النقاش حول رؤيته. ويملك تيد في نبراسكا وحدها خمس مزارع لتربية المواشي تغطي تقريباً 155,5 هكتار (حوالي 600 ميل مربع). ويهدف تيد إلى «إدارة أراضيه بطريقة اقتصادية مستدامة وأسلوب يراعي البيئة فيما يقوم بالترويج للحفاظ على الأجناس الفطرية». إن وضع هذه الأهداف موضع التنفيذ يبرهن في كل مزارعه، أن تربية المواشي في المزارع

إلى جانب توفر حصاد محدود ومستدام من أخشاب الأشجار، وفرص تعيد ابتكار الأشياء قد تكون قابلة للتطبيق من الناحية الاقتصادية.

كما كرس تيد تيرنر موارد هامة لإعادة بناء البيئة الطبيعية لمتلكاته. فقد تمت إعادة إنعاش السهوب الجرداء واستصلاح الأراضي الرطبة التي تم تجفيفها ذات مرة من أجل إنتاج القش. كما أن رعي ثور البيزون الأميركي على أعشاب السهوب الطبيعية وغيرها من مناطق الحياة البرية الفطرية يحظى بالحماية. ولقد اكتسب تيد تيرنر ما مجموعه 800,000 هكتار من الأراضي في الولايات المتحدة، وركز جهوده على المحافظة على ما يقارب أربعة وعشرين من الأجناس الحيوانية البرية ـ العديد منها مدرج على اللائحة باعتبارها معرضة للتهديد، ومعرضة للخطر، أو على شفا الانقراض. و أظهر تيرنر بذلك للمجتمع الزراعي أنه بالإمكان تحقيق أرباح من تربية المواشي في المزارع بينما يجري وفي الوقت ذاته، استصلاح وحماية روعة السهوب. ياله من مثال رائع لرجل أعمال ناجح على مستوى رفيع، يقوم باستخدام ثروته ليجعل من هذا، عالماً أفضل.

يضم مركز التوزيع الإقليمي لمخازن وول مارت الواقعة شمال منطقة پلات، سلسلة من المستودعات المنتشرة بحجم الحظيرة تحتوي على مجمدات ضخمة، وغرف للإنضاج، ومراكز للتعبئة من أجل جميع الأطعمة «الطازجة»، والخضار، والفاكهة، واللحوم، والحليب وهلم جر ـ والتي سوف تباع في فروع السوبر ماركت العملاقة الممتدة عبر إقليم السهول الأميركية الكبرى كله. فكيف يمكن لجون الليس أن يأمل بأن يتقدم للمنافسة؟ فقط بالمساعدة على نشر الوعي لدى الناس العاديين، المستهلكين. ويعمل هو وآخرون من أمثاله، بجهد بالغ من أجل تحقيق ذلك تماماً. ويوجد إلى الخلف من متجره مطبخ تجاري حيث يستطيع المزارعون الاختلاط مع المتسوقين، وحيث يقوم طهاة بعرض كيفية ابتكار أطباق شهية من منتج محلي، يسيل لها اللعاب. أما جدران المتجر فهي مخصصة لعرض لوحات ورسوم مقدمة من المدارس المحلية، وتشكل بذلك صالة للفن يمكن للأطفال أن يتعلموا منها أموراً عن الطعام.

جون الليس ليس الشخص الوحيد. فالعديد من أمثال هذه المتاجر آخذ في الظهور. والمزيد المزيد من أسواق المزارع تقام في مدينة لينكولن والمناطق المحيطة. ويتضافر المزارعون معاً من أجل تمكين المزيد من الناس من التزود بتشكيلة أكبر من المنتج. وهنالك دعم متزايد وسط السياسيين والناخبين من أجل إتخاذ إجراءات مشابهة للتسهيلات الممنوحة من أجل المحافظة على البيئة وقروض الضرائب، والتي ستحمي المزارعين وأراضيهم ـ وهي إجراءات تساعد أيضاً على الحفاظ على جمال الريف وتنوعه الحيوي. وبات العديد من أسواق المزارعين يشكل أمكنة للّقاءات الاجتماعية، وسماع الموسيقى، وتبادل الأخبار الأمر الذي يزيد من شعبيتها. ويتعرف الناس على المزارعين الذين يقومون بتنمية غذائهم، ويدركون أن هؤلاء المزارعين سيكونون أكثر تقديراً للمسؤولية لدى اختيار أساليب الإنتاج التي يعتمدونها.

تقع ضمن حدود مدينة لينكولن مزرعة حاصلة على شهادة منشأ عضوي، تبلغ مساحتها ستة وثلاثين هكتاراً وتحمل اسم شادوبروك، وتقدم خدماتها إلى سبعين أسرة. وتشهد إقامة حدائق المجتمعات طفرة هنا وكذلك في أماكن كثيرة جداً حول العالم، وحيث يستطيع سكان المدينة أن يجدوا السلام الداخلي الذي ينشأ من العمل مع التربة، والإعجاب بنمو الحياة التي زرعوها، وسماع تغريد الطيور، وطنين النحل. إن المحاصيل الناتجة عن حدائق المجتمعات هذه، وتلك التي ينتجها المزارعون الذين يزرعون من أجل مجتمعاتهم المحلية، هي بحق حصاد من أجل الأمل، وكلما ازداد عدد الأشخاص الذين يساندون هذه الجهود، والذين يستخدمون أموالهم التي جنوها بشق الأنفس من أجل شراء منتج من أسواق المزارعين، والذين يستخدمون نفوذهم السياسي للتصويت إلى جانب اتخاذ إجراءات تحمي مصدر هذا المنتج، عاد المزيد من التنوع في المحاصيل إلى الأرض المنهوبة. وتقوم ولاية نبراسكا اليوم حتى بزراعة العنب وبتصنيع منتجاته الخاصة.

كان هناك في مساء اليوم الأخير من إقامتي، أحد أروع غروب للشمس شاهدته في حياتي. لون الصدف الزهري الباهت يتحول إلى لون قرمزي لا يصدق ثم بنفسجي فأحمر ناري. وجلسنا أنا وطوم وأختي عند مرتفع يطل على النهر وراقبنا وأصغينا بينما كانت طيور الكركي تتوافد المجموعة تلو الأخرى، وقد ملأت أصواتها البرية الأجواء، فحجم هائل من الأصوات يحجب صوت سير الشاحنات على الطريق بين الولايات. وكان لا يزال هناك ما يكفي من الطعام وما يكفي من المياه ، للإبقاء على استمرارية هذه الهجرة القديمة. لابد لنا من أن نقوم معاً وبطريقة ما لضمان ألا يحرم أحفادنا من الفرصة كي يعبروا بدورهم، عن إعجابهم بأحد أكثر المشاهد الطبيعية إثارة للذهول. وكان آخر توهج لغروب الشمس مازال يخمد قبالة السماء السوداء تقريباً فيما كنا نسير عائدين إلى الكوخ بصمت مع سحر المساء. وامتدت بقايا الزروع الباهتة المتخلفة من حصاد الذرة في الأرض المنبسطة بعيداً عن النهر، ولاح الشكل الاسود لمحور مركزي قبالة السماء، وهدر صوت محرك سيارة شاحنة على الطريق السريع كالرعد. وكانت طيور الكركي ما تزال تصيح.

ذكريات رجل واحد

بقلم المصور طوم مانغلسون، الذي ترعرع في سهوب نبراسكا

«كان نيد مارتن رجلاً عملاقاً في نظر من هم في سن الثانية عشرة. كان طوله أكثر من ستة أقدام وعيناه زرقاوتان لامعتان صافيتان يرتدي دوماً بنطالاً فضفاضاً بحمالتين فوق ملابسه العادية لحمايتها من الاتساخ وقبعة قش مجعدة عليها بقع من العرق، تشبه قبعات رعاة البقر وتغطي رأسه الأصلع. وبدا وكأن القبعة موجودة دائماً تقريباً مثلما هي ابتسامته.

«وكان هناك دائماً في أحد زوايا فمه عود لتنظيف الأسنان جاهز لشريحة اللحم التالية على ماأظن. كان كل شيء نأكله تقريباً يربى في مزرعة نيد، ومعظمه من المواشي والدجاج وحيوانات أخرى. كان نيد شخصية فخورة ولطيفة ويهتم بماشيته.

وغالباً ما كان يطلق أسماء معينة على حيواناته المفضلة. فقد كانوا بالنسبة إليه أكثر من مجرد دولار آخر أو قطعة أخرى من اللحم. فقد كان الدجاج يركض بحرية وكان القن يضم فوانيس تعمل بالكيروسين الذي يؤمن مقداراً من الدفء في الليالي الأكثر برودة. كانت الحظيرة مليئة بالأحصنة والأبقار الحلوب وكان هدف حياتها أبعد من تسمينها بقصد الإتجار بها في الأسواق. أحب نيد أيضاً أن تكون هناك حياة برية حول مزرعته. فترك أسياجاً من الشجيرات الكثة وأجزاء من أراضي الحراج من أجل طيور الحجل، والأرانب، والظباء، وحطت الصقور ذات الأذيال الحمراء على خشب الحور القطني، ولم ير أن هناك حاجة لجعل مزرعته هي الأنظف في الجوار، وشعر معظم جيرانه بالمثل فقد كانت هناك مساحة كافية من أجل كل من الحياة البرية والمواشي.

«المشهد الذي يتمثل أمامي الآن هو على مسافة بعيدة مما أذكر. فالقطيع يسير إلى الأمام ببطء خائضاً حتى الركب في مستنقع من البراز والطين باللون البني المائل إلى الزيتي. ويرفع رؤوسه باتجاه عدسة الكاميرا المنبطحة والموجهة إلى الأسفل التي يحملها الرجل الغريب فتتسع خياشيمها. ويملأ الفضول عيوناً سوداء صافيةً، بحجم كرة البيسبول. وللمرة الأولى في حياتي وقفت وجهاً لوجه أمام كل تلك لحوم الهمبرغر والعظام التي آكلها والتي تأخذ الشكل T، فشعرت بالغثيان فجأة. أما المساحة المخصصة للتغذية فكبيرة وتبلغ ميلاً مربعاً. وأقرب المواشي إليها ثيران الأنغوس الاسكتلندي ولكن توجد وراءها عدة آلاف من أبقار مقاطعة هيرفورد ذات الوجه الأبيض ويقف بعضها على الأكوام الأكثر جفافاً والتي تم رفعها لتشكل تلالاً صغيرة بواسطة البولدوزرات، ويغوص معظمها في التربة المليئة بالسماد الحيواني. كانت هناك في بداية شهر آذار أمطار وثلوج لعدة أيام، وبإمكاني أن أتخيل ذلك المشهد ــ أكثر بؤساً بكثير. وكان الطقس دافئاً لحسن الحظ مع هبوب الرياح في الأسبوع الفائت. وحتى مع هبوب الرياح خلفي فإن الرائحة اللاذعة تكاد لا تطاق. جرى طحن الحبوب المبللة والمرصوصة على بعضها بلطف مع أعواد الذرة، قرب

حظيرة الأعلاف ضمن مزيج من العلف المجروش الذي يحفظ في الصوامع وتنبعث منه رائحة دبس السكر اللزج. لا تشاهد أي أرض حراجية أو سياج كث من الأغصان في مرمى البصر، فقط أشجار متفرقة من الحور القطني. أما مساحة الأرض المخصصة للأعلاف فهي إحدى أكبر المساحات بين العشرات أو ما يقاربها من القطع المخصصة لإطعام الحيوانات في المنطقة. وتقع على بعد عدة أميال غربي غراند آيلند بولاية نبراسكا والمتاخمة لمبنى عسكري قديم كان يستخدم لتخزين القنابل والذخائر خلال الحرب العالمية الثانية. وقد اختير هذا المكان لأنه يقع في وسط أميركا بعيداً عن أي ساحل.

«إذن كيف تشكل هذا المشهد أمامي؟ الماشية تغوص حتى الركب في روثها ذاته؟ ورافعات تخزين الحبوب تطفح بما فيها، وجبال من فائض الذرة المدعومة من الحكومة تتكوم على الأرض؟

قبل خمسين عاماً مضت ظل الكثير من أراضي النجود العشبية المنبسطة سليماً لم يُمسَ وتستحيل سقايته بسبب الطبوغرافيا. واليوم تظل فقط التلال الشديدة الانحدار والأخاديد كما هي بفضل إدخال نظام مرشات الري المحوري التي تزحف فوق أكثر الأراضي معاناة من القحط، وحيث كانت توجد أراضٍ حراجية وسهوب فطرية. والصحيح أن القليل من أجناس الحياة البرية قد حقق بعض الفائدة من التقنية الحديثة للزراعة ومن وفرة الحبوب. فالطيور المائية وطيور الكركي المهاجرة تقتات على الحبوب المختلفة من الحصاد والتي تعينها على تحمل أعباء رحلة هجرتها إلى الشمال البعيد. ومع قتل معظم الحيوانات المفترسة كالذئاب وابن آوى والأسد الأميركي، أصبح الديك الرومي البري والظباء ذات الذيل الأبيض هي السائدة. وعلى أي حال فقد جرى القضاء على العديد من الأجناس التي كانت موجودة بكثرة في السابق. واختفت تقريباً الأرانب ذات الذيل المكسو بزغب أبيض، واختفى دجاج السهوب وطائر الطهيوج بذنبه الحاد(من فصيلة الدجاج). ولم أشاهد أي أرنب منذ ثلاثين عاماً في حقل الفصة الذي كنت قد إحصيت فيه في

إحدى ليالي الصيف عندما كنت طفلاً ما مجموعة (123) أرنباً من الذين يتميزون بأذنين طويلتين جداً وقائمتين خلفيتين طويلتين أيضاً.

«كانت أحب ذكريات الطفولة فصول الصيف التي أقضيها في منزل نيد مارتن شمال مدينة ماكسويل بولاية نبراسكا، ومزرعة شنايدر قرب نهر پلات حيث مازلنا نملك كوخنا الخاص بنا. وقد أعجب أفراد عائلة مارتن ـ رغم أنهم كانوا يزرعون بعض المحاصيل ـ بفكرة أن يكونوا مربي ماشية أكثر منهم مزارعين. وكانوا يطوفون بالمواشي في الأراضي العشبية للسهوب الأصلية لتلال نبراسكا الرملية. وكانت أصوات الصباح في بداية الربيع آنذاك تغذيها الصيحات الحادة الواضحة لقُبّرة المروج وعصافير الدوري المغردة.

كان الهواء المفعم برائحة المروج والذي كان هواء عليلاً على الدوام، يدفع المرء للتنفس بعمق وكانت أسراب من دجاج النجود وطيور الطهيوج تحلق على علو منخفض فوق الوديان بحثاً عن طعام الصباح تاركة وراءها أقرانها أو المواقع التي تشكل مسرحاً لتكاثرها.

«بدا مشهد الماشية في تلك الأيام وهي تسرح منتشرة على الأرض العشبية الواسعة مشهداً صحياً ولطيفاً. وقام رعاة البقر بين الحين والآخر بسوق القطيع إلى مراعي أكثر اخضراراً. ونقلوا المواشي في الشتاء إلى مناطق يتم فيها إطعامها حزماً من أعشاب النجود أو الفصة. وكانت لحومها قليلة الدهن لذيذة المذاق. و شرح لي نيد مارتن الطريقة الصحيحة لإعداد شريحة من لحم البقر الذي أشرف على تربيته. فأشعل تحت مقلاة مصبوبة من الحديد حراقاً يعمل بغاز الهيدروكربون وأبقى على شعلة النار قوية، ثم أخذ قطعة لحم (من خاصرة البقرة) وزنها عشرون أونصة من الثلاجة وأكثر من وضع الملح عليها من الجانبين، وحركها في المقلاة. ثم قام بالعد حتى الرقم خمسة وقلبها وبعد ثوان أخرى كانت جاهزة للأكل. وقد أثار ذلك إعجابي.

«مضت ثلاثة أسابيع تقريباً منذ أن كنت منبطحاً على بطني وعيناي تحدق في القطيع الذي يتغذى على النخبة من ذرة نبراسكا. كان مكتوباً على اللافتة عبارة «ممنوع التجاوز ـ منطقة حيوية آمنة». لم أكن أعرف ما إذا كانت اللافتة موضوعة من أجل حمايتي أو من أجل حماية المواشي. كنت حذراً ألا أتجاوز بوصة واحدة أبعد من السياج. فهنا في منطقة هارتلاند لم تكن خسارة الموطن هي المسؤولة عن التناقص في الأنواع ولكن كمية السماد الكيماوي والمبيدات العشبية وسموم المبيدات الحشرية التي ترش في الحقول لإنتاج محاصيل استثنائية ضخمة من الذرة. نفس الذرة التي تقيت المواشي في المساحات المخصصة لعلفها. لقد أرغمت الزراعة الصناعية مُزارع الأُسرة على انتهاج الطريق الذي انتهجه الأرنب ذو الأذنين الطويلتين، طريق الفرار. فقد رحل نيد أيضاً، ولكنني لن أنسى أبداً احترامه للحيوانات وللأرض التي قام بتربيتهم فيها.

obeikandl.com